إدوارد سعيد الشخصية المفهومية في الثقافة العربية المعاصرة

نور الدين جويني

Edward Said conceptual personality in contemporary Arab culture

JOUINI Noureddine

أبو القاسم سعد الله جامعة - الجزائر 02 / الجزائر

nourddinedj66@gmail.com

الملخص:

تحاول هذه الورقة تتبع شخصية إدوارد سعيد في الثقافة العربية، وتركز بالضبط على المنجز الروائي، والفن المسرحي، اللذين استطاع من خلالهما علي البدر في روايته "مصابيح أورشليم-رواية عن إدوارد سعيد-"، والشريف الأدرع في مسرحيته "إدوارد سعيد-حكاية اليهودي المعكوسة-"، أن يصورا شخصية إدوارد سعيد كشخصية قلقلة مشتتة تحمل هَم وطن ترك أرضه نتيجة لاستعمار غاشم، فما كُتب عن إدوارد سعيد في الثقافة العربية لم ينحصر فقط داخل المقالات النقدية، والكتب الفكرية، كما تعودنا أن نقرأ دائما؛ بل انتقلت أفكار وشخصية هذا المفكر إلى مجال الرواية والمسرح، وأصبحت تمثل نموذج لتلك الشخصيات المتمردة داخل الفضاء الروائي، فكيف تم تصوير هذه الشخصية داخل عالم الرواية؟ وما هي الصورة التي ظهرت عليها شخصية إدوارد سعيد داخل الفن المسرحي؟.

الكلمات المفتاحية: إدوارد سعيد، الثقافة العربية، الرواية، المسرحية

Abstract:

This paper attempts to follow Edward Said character in Arabi culture and focuses precisely on the novelist and theatrical, through which Ali Al-Bader, in his novel "The Lights of Jerusalem - A Novel on Edward Said", and the aladraa Sheriff in his play, Edward Said - - to portray Edward Said as a distraught and distraught individual who has left his land as a result of colonialism. What has been written about Edward Said in Arab culture has not only been confined to critical essays and books of thought, but also to the ideas and personality of this thinker To the field of novel and theater, and became a model for Those rebellious figures within the novel space, how was this character portrayed in the novel world? What is the image of Edward Said's character within theater art?

Keywords: Edward Saïd. Culture arabe. Novel. theater

مقدمة:

لم يحظى مفكر ذو أصول عربية بالشهرة التي حظي بها إدوارد سعيد في الثقافة الغربية، فمنذ أن أطل علينا هذا المفكر بكتابه "الاستشراق-المفاهيم الغربية للشرق-"، أصبح اسمة بلغة الرياضيين رقما صعبا في التداولية الغربية، فما قدمه من آراء وتحليلات داخل هذا الكتاب أحدث انشطارا في التفكير المؤسساتي الغربي، فقد استطاع وذلك من خلال النظر إلى المؤسسة الاستشراقية نظرة مغايرة تماما برؤية ثقافية سياسية من خلال الاعتماد على أفكار ومنهجيات ما بعد الحداثة، أن يكشف الغطاء عما يختفي تحت ثوب الثقافة لتحقيق مطامع سياسية، كما استطاع أيضا أن يفتتح بهذا الكتاب مجالا جديدا يعيد النظر في التاريخ المزيف الذي صنعته **الهيمنة** الاستعمارية، وهو ما يطلق عليه الآن "النظرية ما بعد الكولونيالية"، كما مهد أيضا لنظريات أخرى على رأسها "**النقد الثقافي**" و"**دراسات التابع**" و"**الدراسات النسوية**"...، ومع كل هذه الضجة التي أحدثها كتاب الاستشراق في الثقافة الغربية، وغيرها من الثقافات الأخرى في بلدان العالم الثالث كالهند مثلا ، كان تلقي هذا الكتاب في الثقافة العربية باهتا جدا، فمع أن البلدان العربية هي بدورها تعرضت لاستعمار ناسف، عبث بكل مقومات الثقافة العربية من دين وأخلاق...، بقيت آثارها السياسية والثقافية مهيمنة بصورة تحفظ مكانة الاستعمار بأشكال مغايرة، وتحت شعارات مضللة، فقد جرت قراءة هذا الكتاب في ثقافتنا من وجهة نظر تقوم على أساس أنها آراء تدافع عن الاسلام، وتدحض كل ما قيل عنه، خصوصا أن هذا المفكر ينتمي بحكم ولادته إلى الثقافة العربية، ومع هذا تفطن بعض النقاد لعملية التأويل الخاطئة التي قُرأ بها هذا الكتاب وحاولوا تصحيح المسار من خلال عرض لما جاء في كتابه بلغة تمكن القارئ غير المطلع على اللغات الأجنبية من الإحاطة بالهدف الأساسي الذي وضعه إدوارد سعيد لهذا الكتاب، وهو فضح تلك التمثلات التي استطاع من خلالها المستشرق أن يعمم الصورة المشوهة التي رسمها عن الشرق والشرقي عموما .

وفي هذه الأوراق لن نحاول التركيز على تلك القراءات التي حصصها النقاد العرب لهذا المفكر الفلسطيني/الأمريكي، بقدر ما سنحاول التركيز أكثر على شخصية هذا المفكر داخل الفن المسرحي والسرد الروائي، فما كتب عن إدوارد سعيد في الثقافة العربية لم ينحصر فقط داخل المقالات النقدية، والكتب الفكرية، كما تعودنا أن نقرأ دائما؛ بل انتقلت أفكار وشخصية هذا المفكر إلى مجال الرواية والمسرح، وأصبحت تمثل نموذج لتلك الشخصيات المتمردة داخل الفضاء الروائي،

فكيف تم تصوير هذه الشخصية داخل عالم الرواية؟ وما هي الصورة التي ظهرت عليها شخصية إدوارد سعيد داخل الفن المسرحي؟ وكيف تم التعامل مع أفكاره السياسية خصوصا تأييده لحل الدولة الواحدة(قوميتين في أرض واحدة؟ وهل اكتفى الراوي بالوصف أثناء عملية السرد أم استعان بتقنيات أخرى من أجل النجاح في عملية بناء هذه الشخصية المتناقضة (عربي/أمريكي...)؟

لا شك أن حديث جيل دولوز *gille Deleuze* وفليكس غتاري *Félix Guattari* في كتابهما المشترك "**ماهي الفلسفة**" عن "**الشخصية المفهومية**" التي تتميز قيمتها بكونها متمردة عن جميع الأنظمة السكولائية، هو حديث يتناسب مع مثقف مثل إدوارد سعيد، فهو شخصية لا ترضى بالجاهز، كما أنها أيقونة تسعى بعزيمتها الفذة إلى كسر كل ما هو سائد، هي ذات طموحها الترحال داخل جميع ثقافات العالم، فلا تمكث في مكان واحد، ولا تستقر في زمان معين، كما لا ترضى إلا أن تتموقع خارج المكان وداحل الزمان في آن واحد. تميزت بفكرها المناضل على مر تجربتها الثقافية فكانت نموذجا يُحتذى به، وشعارا يتقمصه كل ملتزم تجاه قضية بلده الأم؛ اختزل نضاله في سيرة ذاتية عبَّر من خلالها عن القلق الذي صنع شخصيته وحدد مسار فكره، فرسم لنا لوحة خالدة عن مفكر رفض كل أشكال التحزب، فكان شعاره« إنني أرفض التحول والايمان بأي رب سياسي مهما يكن نوع هذا الرب، كونه سلوك غير لائق للمثقف.»[1] وقد تشكل وعي هذا المفكر الهاوي كما يصف نفسه من تجربته التي عاشها خارج وطنه الأصلي فلسطين، فكان المنفى أو **المنطقة الوسطى** بتعبيره مكانا لولادة صوت سياسي وسيط بين العالمين العربي والأمريكي، فاستحق بجدارة أن يحتل مكانا مرموقا داخل الرأي العام العربي والغربي على حد سواء، خاصة بعد رفضه التام لاتفاقية أوسلو التي كانت في نظره وثيقة« لا تضمن الحقوق الفلسطينية بل تضمن إطالة مدة السيطرة الإسرائيلية داخل الأراضي المحتلة.»[2]

وقد شكلت هذه الشخصيات القلقلة موضوعا ثريا لكثير من الأدباء، وأصبحت تجربتهم الثقافية عنوانا نستقي منهم تجاربنا الابداعية، فبين الواقع والخيال رسم لنا الروائي العراقي علي البدر في روايته "**مصابيح أورشليم**" شخصية روائية، تستمد واقعيتها من التجربة الفكرية للناقد الفلسطيني إدوارد سعيد،« رواية عن إدوارد سعيد...لماذا رواية؟...قال: لأن إسرائيل نشأت من أسطورة أدبية...من فكرة رومانتيكية...نشأت من رواية...وبالتالي يجب إعادة كتابتها عن طريق الأدب

أيضا...يجب تكذيبها عن طريق الرواية... الرواية هي أفضل حرب... طالما كل الحروب قد خسرت وفشلت لماذا لا نجرب الرواية...إدوارد سعيد كان أخطر حرب على إسرائيل، أخطر من كل الحروب الفاشلة التي خضناها.»[3]

إن الملاحظ في الآونة الأخيرة، خصوصا في ظل هيمنة سرديات السياسة الثقافية والتي تتصدرها خطابات مثقفي النظرية ما بعد الكولونيالية على الساحة الفكرية، هو تحول هؤلاء إلى واجهة ثقافية، يُتخذ من أفكارهم التحررية مجالا **"للرد بالكتابة"** داخل المنجز الروائي، فقد تمكن كل من فرانز فانون *Frans fanon* وإدوارد سعيد *Edward Saïd* وهومي باباHomi Bhabah وغياتري سبيفاك *Gayatri Spivak* من تحويل تلك النظرة السابقة التي كانت تسيطر على علاقات الأنا بالآخر، وبما أن هذه الثنائية كانت ومازالت مجالا خصبا تتحدد من خلالها مآزق الهويات، فلا سبيل للمبدع والروائي العربي خصوصا، إلا الاستنجاد بهذه الظواهر الثقافية العابرة للحدود من أجل التخلص من معضلة التمثيل التي ميزت الخطابات الغربية، فما طرحه الروائيون العرب في فترة ما بعد الاستعمار لا تتوقف نقاطه عند إشكالية هيمنة الآخر، بل تتمحور بالدرجة الأولى حول كيفية إعادة كتابة التاريخ بصيغة جديدة ترتكز على الآليات التحليلية للنظرية ما بعد الكولونيالية، وذلك من أجل كشف كما يقول حميد دباشي في كتابه **"ما بعد الاستشراق-المعرفة والسلطة في زمن الإرهاب-"**« الحدود المصطنعة للكولونيالية، والحدود العقيمة للدولة/الأمة حيث ولدوا ونشأوا.»[4] ومن بين هذه النماذج ما قدمه الروائي الجزائري واسيني الأعرج في روايته **"الأمير-مسالك أبواب الحديد-"**، بالإضافة إلى ما يقدمه روائي مثل شاكر نوري الذي سعى في معظم رواياته خصوصا **"خاتون بغداد"** إلى إعادة كتابة التاريخ الاستعماري للعراق مركزا على الاستعمار البريطاني والاستعمار الأمريكي، كما حاول على حد قول يحي بن وليد في مقاله **"تأنيث الامبراطورية...التاريخ، التخييل والأسطورة"** المنشور في موقع ضفة ثالثة، أن يُبين الدور الأنثوي الذي تلعبه المرأة البيضاء في صنع الامبراطورية الاستعمارية وخصوصا المستشرقة جيرترود بيل (المعروفة بلقب الخاتون) التي اعتبرها إدوارد سعيد في كتابه **"الاستشراق"** من أبرز المستشرقات اللواتي خدمن الامبراطورية الاستعمارية، فتوظيف هذه الشخصيات الثقافية التي ساهمت في صنع التاريخ وكتابته، سواء من موقع المهيمن من أجل السيطرة واحتواء الآخر الضعيف مثلما فعلت جيرترود بيل وغيرها من المستشرقين، أو من موقع يخول للمثقف الكتابة عن الآخر ولكن من أجل كشف الزيف الذي صنعته الخطابات الاستعمارية، وهو حال رواد النظرية ما بعد الكولونيالية

وغيرهم من المثقفين الذين رفضوا المد الكولونيالي ووقفوا بجنب قضايا البلدان المستعمرة، مثل جون بول سارتر، شكل أدبا جديدا يهدف إلى صناعة الوعي الذي غاب في المنجزات السردية السابقة.

قدم إدوارد سعيد للعالم العربي سيرة ذاتية، ركزت في معظمها عن كيفية تشكلات هوية طفل فلسطيني أدت به ظروف الحرب إلى الابتعاد عن بلد شكل وجعه وتشتته إلهاما أساسيا في حياة هذا المثقف، فموقعه خارج هذا المكان لم ينسيه ذاك الاغتصاب الشبيه باقتحام أبيه لغرفته في كثير من المرات، ولا شك أن ابتعاد إدوارد سعيد عن قضيته مبكرا سببه كما يقول في سيرته الذاتية العيش في أمريكا والابتعاد عن فلسطين أحد عشرة عاما، بالإضافة إلى الكره الذي كان يكنه كل من والده وأمه إلى السياسة،« ذكرياتي الأولى عن فلسطين ذكريات عادية، والغريب أنها غير لافتة، قياسا إلى عميق انشغالي اللاحق بالشؤون الفلسطينية.»[5] أجل إنها ذكريات ترصد محاولة إعادة بناء شخصية كان الوطن بالنسبة لها حلما لا يمكن أن يُسترجع-خصوصا بعد حرمانه من القاهرة خمسة عشرة عاما- إلا في عالم الكتابة، فالكتابة هي وطنه وعزاءه الوحيد الذي يستطيع من خلاله نسيان ألم فقدان وطنه، كما تعتبر علاجه الأول الذي يساعده على تجاوز ألم مرضٍ أطاح به لسنوات عديدة، فالعودة إلى الأصل/ البداية كما عودنا إدوارد سعيد دائما منذ أن وضع كتابه "**بدايات: القصد والمنهج**" 1975 متجذر في هذه السيرة من بدايتها إلى نهايتها« تخترع جميع العائلات آباءها وأبناءها وتمنح كل واحد منهم قصة وشخصية ومصيرا، بل إنها تمنحه لغته الخاصة.»[6] ويقول في نهاية هذه السيرة عندما تمكن منه المرض ولم يعد يستطيع حتى النوم، وهو ألم ذكَّره في بدايات ذاك الألم الذي صاحب أمه وهي في فترات علاجها، هذا المرض الذي حرمها هي بدورها من العيش في موطنها وجعلها ترتبط ببلد كانت دوما تكن له الكراهية(أمريكا)، « والآن أخمن أن عجزي عن النوم هو آخر ما أورثتني إياه، على النقيض من نضالها هي لتنام.»[7]

وفي هذه السيرة لا يريد إدوارد سعيد تقديم صورة عن شخصيته العربية، بقدر ما يريد أن يثبت أن انتماءه العربي/أسرته وتكوينه الغربي الخالص منعاه من رسم ذات أدركت أنها تعيش المنفى حتى داخل وسطها العائلي، فالمرض، والألم، والشوق، والحنين، والظلم، والكراهية(مس كلارك، موراي)، والاقصاء والدكتاتورية، والذاكرة، والمقاومة...، كلها مصطلحات تعج بها هذه السيرة، وقد ارتبطت جميعها بشخصية إدوارد سعيد في مختلف مراحل نموه، وخصوصا مرحلة

تكوينه الدراسي التي شكل فيها اسمه قلقا وصل به إلى حد التساؤل عن هذا الخليط الذي لم يستطع أن يستوعبه في تلك الفترة « فالاسم كان العتبة الأولى لانبثاق سؤال الهوية، وهو لم يكن يطيقه لما يكتشف في الآخرين تلك النظرة المشككة في هويته، هل هو عربي؟ أم أمريكي.»[8]

فكيف استطاع إدوارد سعيد في سيرته الذاتية أن يشكل هوية شخصية منزاحة تقيم علاقات متزعزعة مع أمكنة(فلسطين، القاهرة، لبنان، الولايات المتحدة) هي في الحقيقة من إنجاز تخيلاته الواقعية عن هذه الأمكنة؟ ما موقع هذه السيرة مما أصبح يطلق عليه الآن بالرواية السير ذاتية؟ خصوصا أن هذه السيرة تشتغل على الاعتراف الذي تفتقده الكثير من السير العربية؟ كيف استطاع هذا المنفي وذلك استعانة بالسرد استحضار تلك الخلفية التي ساهمت في تكوين شخصيته (الغياب المطول/النهائي عن فلسطين والقاهرة خاصة)؟ وما هو الدور الذي لعبته أسرته في تكوين شخصيته الداخلية(الأم)، وشخصيته الخارجية(الاصلاحات والعقوبات الجسدانية من قبل الأب)؟ كيف يمكن أن ندرج شخصية واقعية ضمن إطار الشخصية المفهومية التي تحدث عنها كل من جيل دولوز وفيليكس غتاري، والتي تعتبر في ظنهما أنها شخصية تقول وتفكر مثل أبله دوستيوفيسكي، وتبتغي كأنها زرادشت نيتشه، وترقص كأنها ديونيزيوس، وترغب كأنها عاشقة، كما أنها شخصية لا تؤمن إلا بفعل التغيير الذي يبدأ من ذاتها، طارحة صورة جديدة على شاكلة من أكون أنا؟[9] هل حقيقة جعل إدوارد سعيد من ذاته الجوانية داخل هذه السيرة شخصية مفهومية؟ إذا كان ذلك كذلك فيمكن أن نقول أن شخصية إدوارد سعيد يمكن أن تكون دونكيشوت العرب، ويمكن كذلك أن تكون أبله العرب، كيف جسد لنا علي البدر هذه الشخصية داخل روايته "**مصابيح أورشليم**"؟ وكيف استطاع الشريف الأدرع أن يطوع هذه الشخصية في مسرحيته السياسية "**إدوارد سعيد أو حكاية اليهودي المعكوسة**" لينقل لنا معاناة شعب شكلت صدْمةُ حربه نقطة بداية دخل من خلالها إدوارد سعيد المعترك السياسي في الشرق الأوسط، بوصفه المدافع الأول عن القضية السياسية لبلده فلسطين؟

عرفت لغة الضاد إدوارد سعيد في مقال كتبها باللغة العربية في مجلة مواقف البيروتية، تحت عنوان "**التمنع والتجنب والتعرف**"، وتجدر الإشارة هنا أن هذه المجلة كما يرى حليم بركات في مقاله "**إدوارد سعيد الكاتب والناقد الأدبي وصاحب قضية**" اُعتبرت من أبرز المنابر العربية التي شكلت منذ 1968 حركة فكرية شاملة دعت للتغيير والحداثة والإبداع[10]، والمثير في هذه المقال التي كتبها

إدوارد سعيد سنة 1972 أنها تُشعر قارئ هذا الزمان، أن إدوارد سعيد مازال حيا بيننا يشهد ما آلت إليه أوضاع العرب من تدهور مس جميع الأصعدة« ما من عربي اليوم لا تثيره فوضى الأمور، فالأخبار اليومية العادية تبعث هزات من المفاجآت تتبعها سلسلة كاملة من التحليلات البلاغية والعلاجات والتعليلات، ثم تمحو ذلك كله مفاجآت اليوم التالي.»[11] وما عدا هذه المقالة كتب إدوارد سعيد عن العرب وخصوصا القضية الفلسطينية باللغة الانجليزية التي كانت سلاحا استطاع من خلاله هذا المثقف أن يفضح عرش الاستشراق، هذا الأخير الذي استغل جيدا موقعه وحضوره وتمكن بواسطة اللغة من صنع صور تمثيلية اعتبرها إدوارد سعيد تشويها لحقيقة اسمها الشرق، وكتاب "**الاستشراق**"، بالإضافة إلى كتاب "**الثقافة والامبريالية**"، و"**تمثيلات المثقف**"، وفيما بعد "**خارج المكان**" هي تقريبا الكتب التي لاقت اهتماما من قبل المثقفين العرب، كما حازت على معظم الدراسات النقدية التي خصصتها المجلات العربية لهذا المثقف الكوني، ولهذا لقيت التجربة السعيدية في الثقافة العربية تعاطفا لا يعود بالدرجة الأولى إلى انتماء هذا المثقف إلى البيئة العربية، بل يعود إلى كونه الصوت العربي الوحيد الذي استطاع أن يتحدث عن قضية بلد شاع حولها اتفاق في الولايات المتحدة الأمريكية على أنها غير موجودة سياسيا، ولهذا كان شوكة في حلقة اللوبي الصهيوني الذي أراد إسكاته بشتى الوسائل، ولكن هيهات فعزيمة هذا المثقف وربما هو سبب آخر جعله ذا مكانة كبيرة عند المثقفين العرب، جعلت منه مثالا يحتذى به في المواجهة والمقاومة.

ويرى يحي بن وليد في كتابه "**الوعي المحلق-إدوارد سعيد وحال العرب-**" ضرورة التفات المثقفين العرب لكتابين مهمين لهذا المثقف لقيا تهميشا كبيرا في الثقافة العربية وهما كتاب "**مسألة فلسطين**" الذي خصص له إلياس الخوري مقالا في مجلة الكرمل العدد 72-73 ، وكتاب "**القضية الفلسطينية والمجتمع الأمريكي**" وهو عبارة عن محاضرة قدمها إدوارد سعيد في سلسلة المحاضرات التي كانت تقيمها مؤسسة الدراسات الفلسطينية، وفي مفتتح هذه المحاضرة يقول إدوارد سعيد« لا أذكر مرحلة في التاريخ العربي الحديث شهدت ما يشهده تاريخ العرب اليوم من الاهتمام الواسع المستمر اللاهث بالولايات المتحدة الأمريكية. ولا شك أن خلف هذا الاهتمام حقيقة لا جدال فيها، وهي أن أمريكا والمصالح الأمريكية تمس حياة العرب وتقتحمها بصورة مباشرة.»[12] وهذا التحليل والمقارنة تجعل من هذين الكتابين من أبرز الكتب التي تدخل تحت الصراع السياسي الذي توجهه الولايات المتحدة الأمريكية، ويتم في اطاره قولبة القضية الفلسطينية، والمؤسف للأمر وهذا

مواصلة للتهميش الذي تتعرض له مثل هذه الكتب المهمة التي يتم فيها مناقشة حال العرب، هو عزوف المترجمين عن ترجمة كتاب "**مسألة فلسطين**"، الذي مازال ينتظر من يخرجه من كهفه الانجليزي، إلى نوره العربي.

ومن هنا يمكن أن نقول أن المثقف العربي عرف إدوارد سعيد الناقد، الأديب، المتحدث باسم القضية الفلسطينية، ولكنه لم يعرف، أو تجاهل إدوارد سعيد المثقف الأمريكي السياسي، ولهذا حاول علي البدر في روايته "**مصابيح أورشليم**" أن يعيد لنا تلك الشخصية السياسية التي اعتبرها الكثيرون« صوت المثقف الحالم، لا تجربة السياسي الذي خبر إكراهات العمل السياسي اليومي.»[13]، فهل بهذا يمكن أن نقول أن علي البدر حقق حلم إدوارد سعيد عندما أراد أن يكتب رواية يعيد من خلالها كتابة التاريخ الذي زيفه المستعمر؟ هل إدوارد سعيد هو حقيقة رمز لفلسطين الضائعة؟ وهل هذه الحقيقة هي التي جعلت أيمن مقدسي (صاحب فكرة كتابة رواية عن إدوارد سعيد) يقول: أريد أن أصنع من إدوارد سعيد يوليسيز جيمس جويس، ومن أورشليم دبلن؟[14]

تدور أحداث رواية "**مصابيح أورشليم**" في القدس، حيث يشكل كل من أيمن المقدسي وعلاء خليل والراوي، أطرافا يتحدد فيها موقف المثقفين العراقيين من الكتابات السياسية التي ينشرها إدوارد سعيد في كبريات المجلات الثقافية، ويبدو أن الأحداث التي وقعت في تلك الفترة (حرب الخليج الأولى والثانية) كان لها تأثير كبير جدا على المثقفين العراقيين، فمنهم من وجد في إدوارد سعيد ضالته وهو ما حدث مع الراوي وأيمن مقدسي، ومنهم من وجده عثرة على التقدم والديمقراطية خصوصا بعد هجومه اللاذع على كنعان مكية وفؤاد عجمي، ويمثل هذا الطرف داخل الرواية علاء خليل الناقم على اللغة العربية وثقافتها التي لا تنتج في رأيه سوى مجتمع ميؤوس منه« أميركا هي المنقذ، أميركا هي الثورة الجديدة في العالم، وبوش هو جيفارا العصر الجديد...، برنار لويس بطل المطالبة بديمقراطية الاسلام...، رتشارد برل، بول وولوفتس، كنعان مكية، فؤاد عجمي، قادة العبور إلى الضفة الأخرى، إنهم دعاة الوصفة الأخيرة للديمقراطية التي لا تخطئ.»[15]

وبعد هذا التقرير الأولي الذي برر من خلاله الكاتب أسباب إقباله على كتابة رواية يعيد من خلالها رسم مدينة غيرت الكولونيالية كل شيء فيها، ينتقل إلى الحديث عن أورشليم التي لطالما حلم بها أيمن مقدسي، ويبدو أن الخط السردي في هذا الفصل الذي تهيمن عليه التعددية الصوتية هو سرد بطيء نوعا ما، يحاول من خلاله علي البدر رسم تلك المدينة التي تركها إدوارد سعيد منذ أكثر

من 40 عاما، ويحاول في حوارية شبيهة بشخصيات نجيب محفوظ الروائية أن يعيد صورة القدس القديمة التي اندثرت وتحولت إلى وطن تاريخه تل أبيب وشهوده الحاخامات، وتُجسد الجولة التي قام بها كل من يائيل وايستر (وهما بطلان من أبطال روايات إسرائيلية) رفقة إدوارد سعيد ذاك الاغتراب الذي يحس به المنفي عند عودته لأرض وطن غيرت الكولونيالية جغرافيته« إنها تجعل معالمها غريبة تماما عن ساكنها المحلي، ثم تغير تاريخها، أو تخترع تاريخا جديدا وتفبركه، إنها تسرد تاريخ الأمة طبقا لمصالحها ووجودها.»[16] فالقدس أصبحت إسرائيل، وأصبحت غريبة عن ساكنها المحلي. ويزداد هذا الشرخ تعميقا عندما يلجأ الكاتب إلى الذاكرة، ويعيد ربط تلك المراحل المتداخلة الشيقة بين طفولة إدوارد سعيد وبين وصول الهاغانا وهم يحملون على ظهورهم بنادقهم(عويزاتهم بالعبرية وقد ذكرت في الرواية بهذه اللفظة) وزواداتهم إلى فلسطين أيام الانتداب البريطاني، ويدعون أنهم سائحون، ويقدم الكاتب معلومات ثرية ووقائع جديدة عن فترة الانتداب وبدء رحيل العرب واستيطان اليهود في المدينة. ولكن هل حقيقة حلُم إدوارد سعيد بأورشليم ولم يحلم بالقدس؟ لماذا استخدم الكاتب هنا الاسم الذي يطلقه الآن اليهود على القدس(هيكل سليمان)؟ ما السبب الذي جعله لا يختار اسما آخر من الأسماء التي أطلقت على القدس« يبوس كان اسمها أورشليم صار فيما بعد، ثم إيليا كابوتولونيا بعد ذلك، وهي ايليا، وبيت المقدس، والقدس أيضا.»[17] ما الداعي إلى الحلم ونحن نعلم جيدا أن القدس المحتلة هي أرض اغتصبها اليهود بناء على رواية مخترعة؟ هل الرد بالكتابة عن طريق مثل هذا النوع من الروايات يعيد حقيقة التاريخ الذي زيفه الاستعمار اليهودي؟ ألا يمكن أن نقول أن فلسطين في هذه الفترة بحاجة إلى العنف القانوني(نسبة لفرانز فانون) وليست بحاجة إلى التمثيل الثقافي؟ صحيح أن التمثيل كما وضح إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق كان له دور بارز في عملية صناعة جغرافيات متخيلة وهو ما شكل سلاحا في يد الاستعمار روى من خلاله سرديته المفبركة التي غيبت الحضور الفلسطيني/الشرقي« التأويل الصهيوني يقوم بتغييب الحضور الفلسطيني في المبنى السردي، قبل أن يجهز عليه عسكريا في الحرب.»[18] لكن ما يعيشه الفلسطينيون الآن يتطلب أولا طرد الاستعمار اليهودي والالتفات ثانيا إلى السرد الصهيوني ومحاولة كتابة تاريخ فلسطين مجددا في اطار يقوم على نطاق واسع تتشكل من خلاله الهوية الفلسطينية التي اعتبرها إدوارد سعيد **ضحية الضحية.**

أما الفصل الثالث من الرواية فقد عنونه الكاتب بـ: **"تخطيطات وأفكار ويوميات إنسكلوبيدية للكتابة"** احتوى على وثائق هامة وصور سياحية، وروايات وقصص مختلفة يهودية

وعربية، حاول من خلالها السارد إثبات ما قام به في الفصل الثاني، وتأتي هذه العملية في إطار يقوم على التناص بين ما هو تاريخي وما هو سردي جمالي، ويمكن أن نقول أن هذه الطريقة أي محاولة إثبات ذاك التناص مع التاريخ داخل السرد الروائي هي محاولة جديدة حاول من خلالها علي البدر صياغة سرد يخالف في بنائه السرد التقليدي، وتبقى هذه الرواية في مجملها رواية نخبوية بامتياز، لا يستطيع القارئ العادي ذو الثقافة البسيطة أن يستوعب اللعبة السردية التي تقوم عليها الرواية، فالمتلقي لهذا النوع من الروايات لا بد أن يكون متسلحا بثقافة نظرية ما بعد الاستعمار التي تشتغل في جوهرها على الخطاب الهوياتي الذي شكلت مفاهيمه عمودا ارتكزت عليه رواية علي البدر، كما لا بد أن يكون محيطا بالأدب العبري وروافده النثرية والشعرية.

والمتمعن جيدا في هذه الرواية التي جعل علي البدر من شخصية إدوارد سعيد فيها شخصية تمثل دور المرشد السياحي داخل القدس، يستنتج أن إدوارد هنا حاضر بوصفه مشاهد على الأحداث التي غيرت الطبيعة الخرائطية للقدس فقط، ولا يخرج من هذه الأوصاف التي سيطرت على معظم أجزاء الرواية إلا بحقيقة تُقر أن إدوارد سعيد هو شخصية هشة غير قادرة على فهم ما يحدث داخل بلد هاجرها منذ أكثر من 40 عاما، بالإضافة إلى ذلك يبدو أن طاقة إدوارد سعيد المناهضة للكولونيالية وآثارها السلبية على الشعوب المستعمرة داخل المقطوعات السردية التي يخصصها علي البدر للحديث عن إدوارد سعيد طاقة سلبية، لا تجسد حقيقة الوعي المقاوماتي الذي شكل الفكر المناهض لهذه الشخصية التي عُرف عنها داخل الأوساط الأكاديمية وخارجها، بالتزامها السياسي تجاه قضية بلده فلسطين، فإدوارد سعيد صُور على أساس أنه شخصية مثقفة،« مضطهدة عاجزة، يمارس دورا سلبيا، فهو متفرج لا أكثر كما يعرضه السرد، وهو يرقب امرأة ترتدي الملابس الكولونيالية، حتى لا يظن القارئ أن الهدف من وجود شخصية إدوارد سعيد هي أنها مجرد وسيط لعرض المقطوعات السردية الوصفية الخاصة بالأمكنة الإسرائيلية.»[19]

وعلى عكس علي البدر تبدو شخصية إدوارد سعيد في مسرحية الشريف الأدرع "**إدوارد سعيد أو حكاية اليهودي المعكوسة**" شخصية متماسكة إلى حد بعيد، وقد ركزت هذه المسرحية على الفترة الأخيرة من حياة إدوارد سعيد، وبالضبط منذ أن سمع خبر إصابته بسرطان الدم، بعد مؤتمر مدريد الذي أعلن على إثره استقالته من **المجلس الوطني الفلسطيني** الذي كان يترأسه الراحل الفلسطيني ياسر عرفات، وتأتي هذه المسرحية في خضم التعبير عن المعاناة التي يمر بها الشعب

الفلسطيني في ظل الاستيطان اليهودي، وهي معاناة شكلت تجربة إدوارد سعيد الفكرية نموذجا مصغرا لها« إن انزياح إدوارد سعيد عن المركز لم يبدأ عند وصوله إلى الغرب؛ بل منذ طفولته في القاهرة. تظهر هذه المقالات(المقصود هنا مقالات تأملات حول المنفى) المنفى الأول، منفى اللغة أولا الذي جعل اللغة العربية لغة غائبة في طفولة إدوارد سعيد التي تكلم خلالها الانجليزية، ثم منفى الوطن ثانيا، بما أن تلك المدينة-القدس- مدينة طفولته مُنعت عليه ووصفت على أنها خطيرة ومثيرة للقلق.»[20]

و قد شكل هذا القلق هاجسا في مشوار إدوارد سعيد الثقافي، جعل منه نموذجا للمثقف المتشرد الذي وجد في المنفى نوع من الاستقرار المتزعزع داخل مدينة كوزموبوليتانية (نيويورك) شكلت أسوارها وطنا للاجئين والمنفيين والمتشردين، ولا شك أن تركيز الشريف الأدرع على مرحلة إصابة إدوارد سعيد بسرطان الدم يأتي في إطار ابتعاد هذا المثقف في تلك الفترة عن انشغالاته السياسية وحياته المهنية، وتركيزه على كتابة مذكرة تجسد رغبة العودة من جديد لأصله العربي/الفلسطيني الذي لم يشعر به طوال حياته النضالية، فالعودة للوطن كما جاء في مذكراته "**خارج المكان**" باتت مستحيلة في نظره، ولم تشكل حافزا بالنسبة له كونه يعتبر نفسه في غير محله أو المقيم بين عالمين، ولكن التزامه السياسي بقضية الشعب الفلسطيني وتحريره من القيود السياسية للاحتلال الإسرائيلي، جعلت منه رمزا للمثقف الإنساني المناضل/المقاوم، وقد جسد الشريف الأدرع هذه الرغبة داخل تلك الرسالة التي أراد إدوارد سعيد أن يكتبها لأمه« تعلمين يا أمي أنني أشعر بالحاجة إلى التواصل معك كلما صار رحيلي عن العالم في حكم المؤكد، فأنت يا أم تمثلين مرجعي في هذه الحياة الدنيا. وأنا أذكر إلى الآن أنني بعد استفاقتي من إغماءاتي بعد حادث الاصطدام المميت بسيارتي في صيف 1951 بسويسرا، دفعتني غريزتي إلى مخابرتك، وكنت بذلك يا أماه أول إنسان أشعر بالحاجة إلى أن أقص عليه قصتي.»[21] وبعد الحديث عن أمه ومرضه في هذه الرسالة، يتوجه للحديث داخل المسرحية عن قضيته الأساس من خلال شخصية عمته نبيهة التي كان لها دور بارز في تحديد وعي إدوارد سعيد المبكر بالمأساة الفلسطينية كما يذكر هو في مذكراته "**خارج المكان**"،« بفضل عمتي نبيهة اختبرت فلسطين أول مرة تاريخيا وقضية، من خلال الغضب والاستنكار الذين آثارهما فيَ عذاب اللاجئين، هؤلاء الآخرين الذين أدخلتهم هي إلى حياتي.»[22] وتجدر الإشارة هنا أن العمة نبيهة غُيبت تماما على مستوى السرد داخل رواية "**مصابيح أورشليم**"، بل اكتفى علي البدر بذكر صديقة العائلة آنطي ميليا التي شكلت عنوانا للفصل الثاني، ولكن بمجرد ما إن نتجاوز العنوان

حتى تضمر داخل أحداث المقاطع السردية، ويصبح حالها كحال نبيهة التي قام السارد بطمسها داخل اللعبة السردية.

إن المطلع على مسرحية الشريف الأدرع "**إدوارد سعيد أو حكاية المعكوسة**" يدرك تمام الإدراك أن كاتب المسرحية مطلع على مذكرات إدوارد سعيد "**خارج المكان**"، ومحيط بتفاصيل حياة إدوارد سعيد خصوصا السياسية منها، فمعظم عناوين المشاهد تحيل إلى تلك المفاوضات التي قام بها ياسر عرفات مع إسرائيل أو ما يسمى اتفاقية السلام(أسلو)، وموقف إدوارد سعيد منها التي كانت بالنسبة له فرساي فرنسا وليست معاهدة سلام، وتصور هذه المشاهد ذاك الإحباط الذي أصاب إدوارد سعيد بعد التوقيع على اتفاقيات اعتبرها جريمة في حق الشعب الفلسطيني الذي يجهل مخاطر هذه الاتفاقيات، ويتجلى هذا الإحباط في المشهد السابع بعد حوار بين إدوارد سعيد وزوجته، يصل الحوار إلى نقطة ختم بها إدوارد سعيد هذا المشهد بقوله« الأصح أنهم رهنوه. إننا أول حركة تحرر وطني تبرم اتفاقية من هذا النوع موقعين بأنفسنا ليس خسارة سياسية وعسكرية وحسب بل وأخلاقية أيضا. إن خسارة قضيتنا هي خسارة الخسارة.»[23]

وعلى شاكلة الفصل الأول من رواية "**مصابيح أورشليم**"، يحاول الكاتب في بعض مشاهد المسرحية، تصوير موقف المثقفين العرب وخصوصا الفلسطينيين من ما يقدمه إدوارد سعيد في المجال الثقافي، فهو يمثل الكومبرادور الثقافي عند بعض المثقفين خصوصا عادل سمارة وأحمد حسين واسماعيل الناشف وغيرهم من المثقفين الذين ينشطون داخل الجامعات الفلسطينية، كما أنه يعتبر بالنسبة للبعض الآخر مثل حيدر عبد الشافي، وعزمي بشارة رمزا للمثقف الذي حمل على ظهره قضيه بلده في أعرق الجامعات العالمية، فهو كما يقول حيدر عبد الشافي في المشهد الثالث عشر« إدوارد هو إدوارد لم يتبدل فيه شيء، تشاؤم في العقل تفاؤل في الإرادة.»[24] وحيادية الكاتب ودفاعه عن إدوارد سعيد في التهم التي وجهت إليه قبل اتفاقية أسلو وبعدها، واضح جدا، خصوصا عناوين بعض المشاهد التي جعل الكاتب منها بوابة تخبرنا بالظلم والكراهية التي تعرض لها هذا المثقف من قبل بعض المثقفين، وكذلك العداء الصهيوني الذي بذل ما في وسعه من أجل إسكات إدوارد سعيد بمختلف الطرق الملتوية.

ويختتم الشريف الأدرع مشاهد مسرحيته بمشهدين الأول بعنوان "**من الصعب أن أكون إسرائيليا**"، وهو حوار بين دانيال بارينباوم وإدوارد سعيد، يجسد فيه الكاتب الالتقاء الفكري بين

شخصيتين ينتمي كل منهما لقومية عدائية للأخرى، وجدا في الموسيقى عالما تتحد فيه تلك الهوة التي خلقها العداء اليهودي للعرب وفلسطين، وهذا الإصرار على بناء هوية غير تمثيلية تقوم على الهجنة كمبدأ تتأسس من خلالها مفاهيم الهوية يبدو جليا في قول دانيال بارينباوم« أنا مثلك لا أؤمن بإقامة خيم أو كيبوتزات أو تأسيس جيش باسم الهوية النقية، ولذلك بي توق شديد إلى تعلم العربية وجَسر الهوة التي تفصلني عن آخري.»[25]

أما المشهد الأخير فهو عبارة عن خلاصة لموقع إدوارد سعيد الفكري الذي يفضل أن يكون بين عالمين أو خارج المكان، وهذان المشهدان يوضحان بشدة موقف الكاتب من الآراء السياسية التي ميزت الانتاج الفكري عند إدوارد سعيد، خصوصا قيام دولة واحدة تضم قوميتين. فهل الكاتب مصيب في رأيه؟ وهل حقيقة حل الدولة الواحدة أو ما أطلق عليه بعض المثقفين **"التطبيع"** هو الحل الأنسب لقضية شكلت لغزا يصعب على المرء الخوض فيه؟ ما هي ردة فعل المثقفين العرب تجاه الأفكار السياسية والنقدية التي طرحها إدوارد سعيد في مشواره المعرفي؟ كيف نستطيع أن نستغل هذه التركة الثقافية من أجل أن نستعيد وطنا شكلت قضيته قضية العالم أجمع؟

هوامش الدراسة

1 - Edward Saïd; représentations of the intellectual, the Reith lectures, ed; vintage books, new York, April, 1996, p 109.

2 - Ibid, p 101.

[3] - علي البدر: مصابيح أورشليم-رواية عن إدوارد سعيد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن، ط2، 2009 ص 12-13.

[4] - حميد دباشي: مابعد الاستشراق-المعرفة والسلطة في زمن الإرهاب-، تر: باسل عبد الله وطفة، م ت: حسام الدين محمد، منشورات المتوسط، إيطاليا، ط1، 2015، ص 261.

[5] - إدوارد سعيد: خارج المكان، تر: فواز الطرابلسي، دار الآداب، بيروت، ط 1، 2000، ص 45.

[6] - المرجع نفسه، ص 25.

[7] - المرجع السابق، ص 358.

[8] - لونيس بن علي: ملامح من إشكالية الهوية- تحليل الخطاب الاستعماري عند إدوارد سعيد-، ضمن كتاب إدوارد سعيد الهجنة السرد والثقافة، اسماعيل مهنانة وآخرون، منشورات القرن21، الجزائر، 2016، ص 60.

[99] - جيل دولوز، فليكس غتاري: ما هي الفلسفة، تر: مطاع صفدي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط1 1997، ص 80.

[10] - حليم بركات: إدوارد سعيد الكاتب والناقد الأدبي وصاحب قضية، المجلة العربية للثقافة، تونس، ع45، مارس2004، ص 134.

[11] - إدوارد سعيد: التمنع التجنب التعرف، مجلة مواقف، لبنان، ع19-20، يناير 1972، ص 17.

[12] - إدوارد سعيد: القضية الفلسطينية والمجتمع الأمريكي، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ط1، 1980، ص 05.

[13] - يحي بن وليد: الوعي المحلق- إدوارد سعيد وحال العرب-، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2010، ص 144.

[14] - علي البدر: مصابيح أورشليم، مرجع سابق، ص 14.

[15] - المرجع نفسه، ص 67.

[16] - علي البدر: مصابيح أورشليم، مرجع سابق، ص 63.

[17] - المرجع نفسه، ص 236.

[18] - الياس الخوري: سؤال النكبة؛ الصراع بين الحاضر والتأويل إدوارد سعيد ومسألة فلسطين، مجلة الكرمل، رام الله، فلسطين، ع78، شتاء 2004، ص 48.

[19] - موسى إبراهيم أبو دقة: مصابيح أورشليم بين تفكيك الخطابات و إشكاليات التناص، مجلة جامعة الأقصى، غزة، م13، ع1، يناير 2009، ص 50-51.

[20] - ليلى الداخلي: إدوارد سعيد وثقافة المنفى، مجلة أفكار، فرنسا، ضمن كتاب إدوارد سعيد من تفكيك المركزية الغربية إلى فضاء الهجنة والاختلاف، تر: محمد الجرطي، دار المتوسط ، إيطاليا، ط1، 2016، ص 142-143.

[21] - الشريف الأدرع: إدوارد سعيد أو حكاية اليهودي المعكوسة، مقامات للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2013، ص 19.

[22] - إدوارد سعيد: خارج المكان، تر: فواز الطرابلسي، مرجع سابق، ص 158.

[23] - الشريف الأدرع: إدوارد سعيد أو حكاية اليهودي المعكوسة، مرجع سابق، 43.

[24] - المرجع نفسه، ص 75.

[25] - الشريف الأدرع: إدوارد سعيد أو حكاية اليهودي المعكوسة، مرجع سابق، ص 105.